روى الخطيب بسنده إلى الحسن أن عمران بن حصين ـ رضي الله عنهما ـ كان جالسًا ومعه أصحابه فقال رجل من القوم : لا تحدثونا إلاّ بالقرآن ، قال : فقال له : ادْنُ ، فدنا ، فقال : أرأيت لو وكلت أنت وأصحابك إلى القرآن أكنت تجدُ فيه صلاة الظهر أربعًا ؛ وصلاة العصر أربعًا ؛ والمغرب ثلاثًا ، تقرأ في اثنتين ؟ أرأيت لو وُكلت أنت وأصحابك إلى القرآن أكنت تجد الطواف بالبيت سبعًا ، والطواف بالصفا والمروة ؟ ثم قال : أيْ قوم : خذوا عنا فإنكم والله إلاَّ تفعلوا لَتَضِلُّنَّ[١٥] .

ولقد بيَّن الإمام محمد بن نصر المرْوَزي مكانة السنة وأقسامها ، فقال :

« فالسنة تتصرف على أوجه : سنة اجتمع العلماء على أنها واجبة ، وسنة اجتمعوا على أنها نافلة ، وسنة اختلفوا فيها : أواجبة هي أم نافلة ؟ ثم السنة التي اجتمعوا أنها واجبة تتصرف على وجهين : أحدهما عمل والآخر إيمان ، فالذي هو عمل يتصرف على أوجه :

سنة اجتمعوا على أنها تفسير لما افترض الله مجملاً في كتابه ، فلم يفسره ، وجعل الله تفسيره وبيانه إلى رسول الله ﷺ قال الله عز وجل : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِم ﴾ (النحل : ٤٤) .

والوجه الثاني : سنة اختلفوا فيها ، فقال بعضهم : هي ناسخة لبعض أحكام القرآن ، وقال بعضهم : لا ، بل هي مُبَيِّنة في خاص القرآن

(١٥) الكفاية للخطيب ص : ٤٨ .

وعامه ، وليست ناسخة له ؛ لأن السنة لا تنسخ القرآن ، ولكنها تبين عن خاصِّه وعامِّه ، وتفسر مجمله ومبهمه .

والوجه الثالث : سنة اجتمعوا على أنها زيادة على ما حكم الله به في كتابه ، وسنة هي زيادة من النبي ﷺ ليس لها أصل في الكتاب إلاَّ جملة الأمر بطاعة النبي ﷺ والتسليم لحكمه وقضائه ، والانتهاء عما عنه نهى »[١٦] .

وهكذا فإنه يتبين لنا أن القرآن الكريم لا تعرف أحكامه إلاَّ من خلال السنة ، وأن الإسلام لا يتكامل بناؤه ونظامه إلاَّ من خلال السنة ، ورحم الله عبد الرحمن بن مهدي إذ يقول :

« الرجل إلى الحديث أحوج منه إلى الأكل والشرب »[١٧] ولسنا مخيرين بأخذ السنة أو تركها ؛ فلا إسلام بلا سنة ، وكما قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : « القرآن وعاء والسنة غطاء » ، ومعنى كلامه أن السنة هي الكاشفة عن معاني القرآن وأحكامه .

---

(١٦) السنة للإمام محمد بن نصر المروزي ص : ٣٠ - ٣١ .
(١٧) الكفاية للخطيب البغدادي ص : ٤٩ .

رَفَعَ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

حصر أحاديث النبي ﷺ

إذا عرفنا أن الحديث لم يكن صدوره محصورًا في وقت خاص من أوقات النبي ﷺ ، ولا محدودًا بمكان ولا بنوع من أنواع السلوك ، بل هو جميع ما يصدر عنه من أنواع النشاط في السر والعلن ، وفي الليل والنهار ، وفي علاقاته الفردية والاجتماعية ؛ وأن هذا النشاط من لدن بعثته حتى وفاته كان موضع الاقتداء والائتساء ؛ ولما عرف الصحابة من عصمته ﷺ فقد فتحوا أعينهم على كل فعل فعله ، وألقوا بآذانهم لكل قول قاله ، وبحثوا عن أخلاقه وصفاته ، حتى طرقوا أبواب أزواجه يسألون عن معاشرة النبي ﷺ لأزواجه ، ولا ريب أن الشخص الذي نضعه تحت ملاحظتنا الدقيقة المستمرة سوف نسجل من أفراد نشاطه ما يصعب علينا جمعه وملاحقته ، فكيف إذا كان الأمر أمر رسولٍ أُمر الناس بمتابعته والوقوف عند أمره ونهيه ، وقد أحبوه فوق حبهم لأنفسهم وأبنائهم وأزواجهم ؟! ولا بد أن يتضاعف الأمر أضعافًا مع كثرة الوافدين عليه والجالسين إليه والمقتبسين منه . وهكذا فإننا لا نستطيع حصر ما صدر عن رسول الله ﷺ من أحاديث ، ولذلك فإن ابن الجوزي - رحمه الله - يقول : (اعلم أن حصر الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ بعيد إمكانه ، غير أن جماعة من أهل العلم بالغوا في تتبعها وحصروا ما أمكنهم ، فأخبر كل منهم عن وجوه)(١٨) .

(١٨) تلقيح فهوم أهل الأثر ص : ٣٧٨ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

تفاوت الصحابة رضي الله عنهم في رواية الأحاديث

ولقد تفاوت الصحابة رضي الله عنهم في الرواية عن رسول الله ﷺ بين مكثرٍ ومقل . ومرجع هذا التفاوت إلى أحد الأمور التالية :

١ - تقدم إسلام الصحابي أو تأخره ؛ فالمتقدم في إسلامه تكون فرصة الرواية عنده أكبر .

٢ - تقدم وفاة الصحابي أو تأخرها ؛ فالذين تقدمت وفاتهم في عهد النبي ﷺ لا يُروى عنهم الشيء الكثير ، ومن تأخرت وفاته حتى احتاج الناس إلى الرواية عنه لا بد أن تكثر رواياته ؛ فجابر بن عبدالله رضي الله عنه تأخرت وفاته (ت ٧٤هـ) ، والذين لقيهم من التابعين كانوا على شغفٍ بمعرفة سنة نبيهم ﷺ والصحابة الذين بين ظهرانيْهم قلة ، فحملهم هذا الشغف وقلة الصحابة على الاستكثار من الرواية عنه .

٣ - تفرغ الصحابي لمجالسة النبي ﷺ ومتابعته ، أو عدم تفرغه لذلك ، إذ أن أكثر الصحابة كانوا أصحاب تجارة أو زراعة ، وكانوا أصحاب جهاد وسرايا ، بينما تفرغ قليل منهم لملازمة النبي ﷺ ومتابعته ، كأبي هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وأنس بن مالك ، وعائشة ، رضي الله عنهم أجمعين .

٤ - ولا ريب أن الصحابة متفاوتون في حفظهم وقدرتهم على التذكر ،

فمنهم الحافظ ومنهم غير الحافظ . فلا عجب أن نجد منهم من يحفظ الألوف كأبي هريرة بينما لا يحفظ بعضهم إلا الآحاد أو العشرات ، فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يصف حال الصحابة من حفظ الحديث فيقول : (قام فينا النبي ﷺ مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق ، حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم ، حفظ ذلك من حفظه ، ونسيه من نسيه)[١٩] . وهذا حذيفة ـ رضي الله عنه ـ يقول : (قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلاّ حدثه ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابه هؤلاء . وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته ، فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ، ثم إذا رآه عرفه)[٢٠] .

نماذج من الصحابة المكثرين والمقلين

١ ـ المكثرون :

يعتبر أبو هريرة وعائشة رضي الله عنهما من الصحابة المكثرين ، ويرجع إكثارهما لتوافر أمور فيهما :

١ ـ عرف أبو هريرة ، كما عرفت عائشة رضي الله عنهما ، بالحافظة

(١٩) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ٢٨٦/٦ .
(٢٠) أخرجه البخاري في صحيحه ٤٩٤/١١ ومسلم في صحيحه ٢٢١٧/٤ .

القوية والذاكرة الممتازة ، ومما زاد في ذاكرة أبي هريرة دعوة النبي ﷺ له . أمَّا عائشة فقد تناقل الرواة أنها كانت راويةً للشعر والأدب ؛ حتى كانت تحفظ للبيد بن ربيعة نحوًا من ألف بيت ، وقد حفظت القرآن الكريم ، والحلال والحرام ، والنسب والشعر والطب . فلا عجب أن تحفظ عن رسول الله ﷺ ألفي حديث ومائتي حديث وعشرة .

٢ ـ كلاهما كان متفرغًا للرواية ، أمَّا عائشة فقد كانت في بيت النبوّة ، وكانت أحب أزواج النبي ﷺ إليه . وأمَّا أبو هريرة فقد فرَّغ نفسه لمصاحبة النبي ﷺ من شهر صفر سنة سبع للهجرة ، حتى وفاة النبي ﷺ . يقول عن نفسه : « وإن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصفق[٢١] بالأسواق ، وإن إخوتي من الأنصار كان يشغلهم عمل أموالهم ، وكنت امرءًا مسكينًا ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني ، فأحضر حين يغيبون ، وأعي حين ينسون »[٢٢] . ويقول أيضًا : (وكنت أكثر مجالسة لرسول الله ﷺ أحضر إذا غابوا ، وأحفظ إذا نسوا)[٢٣] .

٣ ـ كلاهما عُمِّر بعد النبي ﷺ فعائشة ـ رضي الله عنها ـ توفيت سنة ٥٧هـ وكذلك أبو هريرة ، وكان كل منهما مصدر رواية مباشرًا ، ـ إلى جانب ما أخذه كل منهما عن الصحابة ثم قام بروايته ـ وقد احتاج التابعون لرواياتهما فأكثروا عنهما .

(٢١) الصفق : البيع .
(٢٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (٣/١٣٥) (بهامش فتح الباري) .
(٢٣) أخرجه الإمام أحمد (١٤/١٢٢) (ترتيب الساعاتي) .

٢ ــ المُقِلُّــون :

ومن الصحابة المقلين في الرواية رغم تقدم إسلامهم ومكانتهم من رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق وعثمان بن عفان ـ رضي الله عنهما ـ وقد بلغت روايات أبي بكر ـ كما يقول ابن الجوزي ـ مائة واثنين وأربعين حديثًا ، وقال أبو بكر البرقي : الذي حفظ له نحو من خمسين حديثًا في إسناد بعضها ضعف(٢٤) . وأما عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فقد روى مائة وستة وأربعين حديثًا ـ كما يقول ابن الجوزي ـ وقال البرقي : الذي حفظ عنه نحو من أربعين حديثًا(٢٥) .

ولعل مرجع إقلالهما في الرواية عن رسول الله ﷺ :

١ ـ اشتغالهما بالتجارة ؛ فلم يتمكنا من طول الملازمة .

٢ ـ تقدم موتهما قبل أن يبرز دور التابعين ؛ إذ كانت وفاتهما والصحابة متوافرون كثيرون .

ونخلص من هذا إلى أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ تفاوتوا في الرواية عن رسول الله ﷺ فقليل منهم من كانت رواياته بالألوف وهم : أبو هريرة وعبدالله بن عمر وأنس بن مالك وعائشة رضي الله عنهم ، ومنهم أصحاب الألف ، وهم : عبدالله بن عباس وجابر بن عبدالله وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهم ، وسائرهم بين أصحاب المئات وأصحاب الآحاد(٢٦) . وإلى جانب هذا فإن عدد الروايات يقل إذا عرفنا أن الطرق تتشعب ، وقد يروى الحديث الواحد من عدة طرق ، فترجع الألوف إلى الألف ، والمئات إلى العشرات .

(٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦) انظر تلقيح فهوم أهل الأثر ـ ص : ٣٦٣ ـ ٣٨٧ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

مسؤولية المنهج

لقد هيمن المنهج على رواية الحديث فضبط عمليات الرواية ، وكان سببًا من الأسباب المباشرة في تقليل الرواية عن رسول الله ﷺ إذا ما قيست هذه الرواية مع العدد الجم الغفير من الصحابة ، وتعلقهم برسول الله ﷺ ومعرفتهم بمكانة سنة النبي ﷺ من الدين . ولقد ظهر هذا المنهج بجلاء ووضوح في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته . وسنناقش قضيتين منهجيتين :

الأولى : كتابة الحديث بين النهي والإذن .

الثانية : طلب البينة على الرواية .

كتابة الحديث بين النهي عنها والإذن بها

لم يكتب الحديث في حياة النبي ﷺ كما كتب القرآن الكريم ، ولم يتخذ النبي ﷺ لنفسه كتبةً يكتبون الحديث . ويرى الأستاذ الدكتور صبحي الصالح ـ رحمه الله ـ أن ذلك يرجع إلى ندرة الوسائل الكتابية ، وإلى ضعف البواعث النفسية عند أكثرهم على كتابة السنة[٢٧] . ولست مع هذا الرأي ؛ لأن ندرة الوسائل لا تقف أمام عمل على درجة كبيرة من

(٢٧) علوم الحديث ومصطلحه للدكتور صبحي الصالح ص : ١٨ ـ ١٩ .

الأهمية ككتابة الحديث . وممّا لا ريب فيه أن البواعث النفسية الداعية إلى كتابة السنة وحفظها قوية ، لا سيما وأن الصحابة يعلمون مكانة السنة من الدين .

وقد ثبت أن امتناع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ عن الكتابة إنما جاء من نهي النبي ﷺ عن كتابة شيء غير القرآن ، وذلك فيما رواه أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : « لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عني ولا حرج »[٢٨] . ثم جاء الإذن من النبي ﷺ لعبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ بالكتابة ، فقد جاء عنه قوله : « كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه ، فنهتني قريش ، وقالوا : أتكتب كل شيء تسمعه ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا ؟ فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت لرسول الله ﷺ فأومأ بإصبعه إلى فيه ، فقال : اكتب ؛ فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلاّ حق »[٢٩] .

ويمكن التوفيق بين النصين ، سيرًا على طريقة العلماء في اعتبار الإذن بالكتابة هو آخر الأمرين منه ﷺ بأن يقال :

١ ـ لقد شاء الله تعالى أن يحفظ كتابه الكريم من التحريف والاختلاف ، فصانه من كل شيء يكتب إلى جانبه ، حتى ولو كان السنة ،

(٢٨) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/١٢ ، ٣٩ والإمام مسلم في صحيحه ٤/٢٢٩٨ .

(٢٩) أخرجه الإمام أبو داود ٤/٦٠ .

التي هي وحي يوحى ، وهذا من الشواهد على صدق النبي ﷺ إذ أنه ميز كتاب الله عن سنته ؛ كي يبقى الكتاب معجزة الإسلام الكبرىٰ . ولولا ذلك لكثرت الشروح والتعليقات على آيات القرآن الكريم ، ثم اختلط الأمر على الكاتبين ، فلا يستطيعون تمييز النص المتعبد بتلاوته عن سائر النصوص . وهذا ما حدث لرسالات الأنبياء قبل محمد ﷺ فقد اختلطت الحقيقة بالخيال ، والخطأ بالصواب ، والوحي بالرُّؤىٰ والأحلام . حتى ذهب الأصل واختفى تحت وطأة الزيادات والإضافات ، فلم يعد للوحي تميزه وهيمنته ، وأصبح الوحي عند اليهود والنصارىٰ : حركة التاريخ ؛ بمعنى أن كل شيء يحدث في التاريخ يضاف إلى الوحي ، باعتباره إرادة الله وحركة ذلك في الأحداث . وما القراءات الشاذة ـ عندنا ـ إلاَّ إضافات تفسيرية كتبت إلى جانب الآيات ، ثم ظنَّ الكاتب أنها من القرآن الكريم . ولكن الكثرة الكاثرة من الصحابة الذين أفردوا النص ولم يكتبوا شيئًا إلى جانبه ، بالإضافة إلى الذين حفظوه كل هؤلاء تواترت الرواية القرآنية عنهم ، وحكموا على الزيادة بالشذوذ وعدم القبول .

وإننا نستطيع القول : إن تواتر القرآن الكريم كان بتوفيق الله وحفظه ، ثم بالمنهج الذي صانه ، ولولا هذا النهي عن كتابة الحديث لتعددت الروايات والألفاظ ، ولما حصل هذا التواتر ، وصدق الله العظيم : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون ﴾ (الحجر : ٩) .

وقد عقب الإمام الخطّابي على حديث النهي بقوله : « وقد قيل إنه إنما نهى أن يُكتب الحديث مع القرآن في صحيفة واحدة ، لئلا يختلط به ، ويشتبه على القارىء ، فأمّا أن يكون الكتاب نفسه محظورًا وتقييد العلم

بالخط منهيًا عنه ، فلا »[٣٠] . وقد جاء هذا القول بعد أن قال : « يشبه أن يكون النهي متقدمًا ، وآخر الأمرين الإباحة »[٣١] .

٢ ــ كان الإذن منه ﷺ بالكتابة بعد السنة السابعة ؛ لأن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ هاجر مع أبيه بعد الحديبية ، ويظهر من النص أن عبدالله أفرد كتابة الحديث في كتاب ولم يجعله مع القرآن .

٣ ــ لمّا كانت السنة في عهد النبي ﷺ نامية ، باعتبار توالي صدورها عن رسول الله ﷺ يضاف إليه أن هذه السنة قد تتناول أحكامًا مرحلية يعتريها النسخ ، فقد كان النهي عن كتابتها له فوائده المنهجية حتى لا يأخذ المكتوب طابع النهائية ، ولو أطلق العنان للصحابة من أول الأمر للكتابة لوصلتنا نسخ عديدة فيها الاختلاف ، وكل يجزم بصحة نسخته .

لذلك كانت السياسة العامة النهي عن كتابة السنة ، فيما عدا الإذن الخاص أو في مسائل محددة ذات أنصبة وفروض وأرقام ، يصعب ضبطها من غير كتاب . وهذا المحذور يزول بعد وفاة النبي ﷺ لأن السنة قد توقف صدور المزيد منها ، إلى جانب ثبات أحكامها ، ووصولها إلى المرحلة النهائية . وكتابة الكتب بعد وفاة النبي ﷺ لا تأخذ طابع القول الذي تأخذه لو كتبت في عهده ﷺ ، بل يبقى الأمر بعد وفاة النبي ﷺ موضع اجتهاد وحوار . . وقد يُخَطِّئُ بعض الصحابة بعضهم ، ويدعي أحدهم نسخ حديث يعتبره غيره محكمًا غير منسوخ .

---

(٣٠) معالم السنن للخطابي ١٨٤/٤ .

(٣١) المصدر والصفحة نفساهما .

٤ ــ لو قدر للسنة أن تجمع في حياة النبي ﷺ لما ظهرت هذه النزعة النَقدية المنهجية التي مدت آثارها إلى مختلف جوانب المعرفة الإسلامية ، والتي كانت ميدان تنافس بين العلماء ، وستبقى كذلك إلى يوم القيامة ، بإذن الله تعالى .

٥ ــ إن كتابة السنة في عهد النبي ﷺ أمر يشغل المسلمين بنصّيّة السنة أكثر مما يشغلهم بالصحبة والممارسة والاقتباس المباشر ، وهذا الثاني ما يميز جيل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ عن كل جيل بعدهم ؛ إذ أنّهم تعاملوا مع ذات رسول الله ﷺ وشخصه .

ونخلص من هذا إلى أن النهي عن كتابة السنة كان نهيًا نصيًّا منهجيًّا ، والإذن بكتابتها كان محدودًا في الأشخاص المعينين ، وفي الموضوعات التي تحتاج إلى تذكر ، وللطُّرَّاء الذين يرجعون لأقوامهم ويريدون شيئًا مكتوبًا ؛ إمّا لإتقانه وتذكره ، وإمّا زيادةً في التوثيق والتصديق ؛ فقد أخرج البخاري في صحيحه ، من رواية أبي هريرة ، أن خزاعة قتلوا رجلاً من بني ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه ، فأخبر بذلك النبي ﷺ فركب راحلته فخطب ، فقال :

(« إن الله حبس عن مكة القتل ـ أو الفيل ، شَكَّ أبو عبدالله ـ وسلط عليهم رسولَ الله ﷺ والمؤمنين ، ألا وإنّها لم تحلَّ لأحد قبلي ، ولم تحلَّ لأحد بعدي ، ألا وإنها حَلَّت لي ساعةً من نهار ، ألا وإنّها ساعتي هذه حرام : لا يُختلى شوكُها ولا يعضد شجرها ، ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد . فمن قُتل فهو بخير النظرين : إمّا أن يُعقل وإمّا أن يقاد أهل القتيل » . فجاء رجل من أهل اليمن ، فقال : اكتب لي يا رسول الله ،

فقـال : « اكتبوا لأبي فـلان » فقال رجـل من قريش : إلاَّ الإذخـر يا رسول الله ، فإنا نجعله في بيوتنا وقبورنا ، فقال : « إلاَّ الإذْخَر » . فقيل لأبي عبدالله : أي شيء كتب له ؟ قال : كتب له هذه الخطبة)[٣٢] .

فلا يفهم من هذا الحديث الإذن العام ، وإنّما يُفهم منه الإذن الخاص لمن احتاج إلى الكتابة . وأما حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ففيه أمران : الإذن بالكتابة والردّ على قولهم : « ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الرضا والغضب » فرد النبي ﷺ على قولهم هذا بقوله : « اكتب ؛ فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا الحق » وهذا الموضع من الحديث أبلغ في الاعتبار ، وأهم من الإذن بالكتابة . فيكون إنكار النبي ﷺ على قول من ظن أن رسول الله ﷺ كسائر البشر قد يخرجه الغضب عن الحق والصواب . فيكون سياق الحديث في معرض الإنكار على من زعم أن النبي ﷺ يتكلم في الرضا والغضب ، وقد يحمله هذا على الخطأ .

(٣٢) أخرجه الإمام البخاري ٢٠٥/١ (بهامش فتح الباري) وأبو داود ٦٢/٤ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

المنهج في زمن الصحابة

وعندما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى توقف الوحي بعد أن أتم الله تعالى على المسلمين نعمته ، وأكمل لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، ولم يعد وحيٌ ينزل ، ولا حديث يصدر . ووقف الصحابة على أحوال هذه الفترة المباركة يسترجعونها ، ويتذكرونها ، ويتأملون فيها ، ويروون أخبارها ، ولا سيما أنهم شاهدون عليها ، ومطالبون بنقلها إلى من وراءهم من الناس . إلى جانب أن التابعين الذين فاتتهم الصحبة كانوا على شغف بسنة النبي ﷺ فكانوا يتجمعون حول الصحابة يسألونهم ويقتبسون منهم . يضاف إلى كل هذا ما طرأ من الحاجات الكثيرة مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية ؛ كل هذه الأمور حدت بالصحابة إلى الرواية عن رسول الله ﷺ .

وإذا كان الحديث عن العظماء يعطي مزية للمتحدِّث والمترجم ، فكيف بمن يتحدث عن رسول الله ﷺ ؟! وفي مثل هذا الموقف قد تتدافع المشاهد والأخبار ، ويختلط المتيقَّن بالمظنون ، والحقائق بالأوهام . ولقد بالغت الأمم السابقة في كلامها عن أنبيائها وعظمائها فاستهواها الحديث عن العظمة والعظماء ؛ حتى مزجت بين الحقيقة والخيال والصواب والخطأ ؛ فضاعت الحقائق ، وضاع الصدق تحت حُجب المبالغة والخيال . وحتى لا تصاب هذه الأمة بما أصيب به من سبقها من الأمم شاء الله ـ تعالى ـ وقَدَّر أن يُهيىء لها الأئمة المهديين والخلفاء

الراشدين ؛ فحافظ هؤلاء على منهج النبوة وسلامة السنة من العبث والخيال والحب الأعمى .

فقد علم هؤلاء الصحابة عِظم المسؤولية وهم يحدثون عن رسول الله ﷺ فكانوا وَقَّافين عند ما يتيقنون من روايته ؛ فقد روى الإمام البخاري وغيره من طريق عبدالله بن الزبير ، قال : قلت للزبير : إني لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان ، قال : أما إني لم أفارقه ، ولكن سمعته يقول : « من كذب عليَّ فليتبوّأ مقعده من النار »[٣٣] وأخرج البخاري من رواية أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : إنه ليمنعني أن أحدثكم حديثًا كثيرًا أنَّ النبي ﷺ قال : « من تعمد عليَّ كذبًا فليتبوّأ مقعده من النار »[٣٤] ، وكذلك روي عن أبي قتادة الأنصاري .

وهؤلاء الصحابة الأجلاء - الزبير وأنس وأبو قتادة - استدلوا بهذا الحديث لا لخوفهم من الكذب المتعمد ، القائم على الزور والبهتان ، وإنما قصدوا الكذب غير المتعمد ، الذي هو خطأ الراوي برواية ما يخالف الواقع . وهذا الحذر هو الذي حملهم على الاستشهاد بالحديث . يقول الإمام ابن حجر معقبًا على حديث الزبير - رضي الله عنه - : « والثقة إذا حدث بالخطأ ، فحمل عنه وهو لا يشعر أنه خطأ ، يعمل به على الدوام للوثوق بنقله ، فيكون سببًا للعمل بما لم يقله الشرع ، فمن خشي من الإكثار الوقوع في الخطأ لا يؤمن عليه الإثم

---

(٣٣) أخرجه الإمام البخاري ١ / ٢٠٠ (بهامش فتح الباري) وأبو داود في سننه ٤ / ٦٣ .
(٣٤) أخرجه الإمام البخاري ١ / ٢٠١ (بهامش فتح الباري) .

إذا تعمد الإكثار ، فمن ثَمَّ توقف الزبير وغيره من الصحابة عن الإكثار من التحديث »[٣٥] .

ولقد كان الصحابي إذا حدث فزع وخشي على نفسه من الزلل والخطأ ، لشدة ورعه في الرواية عن رسول الله ﷺ فقد روي عن عَمْرو بن ميمون قال : كنت آتي ابن مسعود كل خميس ، فإذا قال : سمعت رسول الله ﷺ انتفخت أوداجه ثم قال : « أو دون ذلك ، أو فوق ذلك ، أو قريب ذلك ، أو شبيه ذلك ، أو كما قال »[٣٦] ، وهذا أبو هريرة يسأل عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ فلا يقوى على التحديث ويغمى عليه كلما هم بالتحديث[٣٧] .

ولشدة الحديث على بعض الصحابه كان ينتظر وقتًا طويلاً حتى يحدث ، فقد رُوي عن ابن عمر أنه كان يأتي عليه الحول قبل أن يحدث عن رسول الله ﷺ[٣٨] ، وكان زيد بن أرقم يقول : والكلام على رسول الله ﷺ شديد . وعن السائب بن يزيد قال : « صحبت عبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيدالله وسعد بن أبي وقاص والمقداد بن الأسود فلم أسمع أحدًا منهم يتحدث عن رسول الله ﷺ إلاَّ أني سمعت طلحة بن عبيدالله يتحدث عن يوم أُحد »[٣٩] .

---

(٣٥) فتح الباري ١/٢٠١ .
(٣٦) الكامل لابن عدي ١/٣٢ .
(٣٧) جامع الترمذي (٤/٥٩١ ـ ٥٩٣) .
(٣٨) الكامل لابن عدي ١/٣٠ .
(٣٩) الكامل لابن عدي ١/٣٠ .

ولم يترك أمر الرواية إلى الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ دون سؤالهم عن رواياتهم ، والتحري عن دقتهم ، وطلب البينة على الحديث الذي يروونه عن رسول الله ﷺ ؛ فقد جاءت الجدّة إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ تسأله عن ميراثها ، فقال لها : ما لك في كتاب الله شيء ، ولا علمت لك في سنة رسول الله ﷺ شيئًا ، فقال المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ : حضرت رسول الله ﷺ أعطاها السدس . فقال أبو بكر : هل معك غيرك ؟ فقام محمد بن مسلمة الأنصاري ، فقال مثل ما قال المغيرة ، فأنفذ لها أبو بكر(٤٠) .

وهكذا شرع أبو بكر في طلب الدليل والبرهان الشاهد على دِقَّة الصحابي وضبطه ، ثُمَّ سار عمر ـ رضي الله عنه ـ على منهج أبي بكر ، بل شدد في السؤال ، وتوعد من يحدث دون أن يقيم البينة على حديثه . أخرج الإمام مسلم في صحيحه (أن أبا سعيد الخدري قال : كنا في مجلس عند أُبيّ بن كعب ، فأتى أبو موسى الأشعري مغضبًا ، حتى وقف فقال : أَنشدكم الله هل سمع أحد منكم رسول الله ﷺ يقول : الاستئذان ثلاث ، فإن أُذن لك وإلاّ فارجع ؟ قال أُبيّ : وما ذاك ؟ قال : استأذنت على عمر بن الخطاب ثلاث مرات ، فلم يؤذن لي ، فرجعت ، ثم جئته اليوم فدخلت عليه . فأخبرته أني جئت بالأمس فسلمت ثلاثًا ، ثم انصرفت . قال : قد سمعناك ، ونحن حينئذٍ على شغل ، فلو ما استأذنت حتى يؤذن لك ؟ قال : استأذنت كما سمعت رسول الله ﷺ . قال (عمر) : فوالله لأوجعن ظهرك وبطنك أو لتأتين بمن يشهد لك على

---

(٤٠) الكفاية للخطيب البغدادي ص : ٦٦ ـ ٦٧ ، أخرجه الإمام مالك في الموطأ .

هذا)[٤١] ـ وفي رواية : (أقم عليه البينة وإلاّ أوجعتك)[٤٢] . وفي رواية أخرى : (وإلاًّ فلأجعلنك عِظَةً)[٤٣] ـ (فقالوا : لا يشهد لك على هذا إلاًّ أصغرنا ، فقام أبو سعيد فقال : كنا نؤمر بهذا ، فقال عمر : خفي عليَّ هذا من أمر رسول الله ﷺ ألهاني عنه الصفق بالأسواق)[٤٤] . وقد أخرج الإمام مسلم تعقيبًا لأبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال لعمر : (فلا تكن يا بن الخطاب عذابًا على أصحاب رسول الله ﷺ فقال عمر : سبحان الله ، إنما سمعت شيئًا فأحببت أن أتثبت)[٤٥] .

فهذه القصة ـ التي أطلنا في ذكر روايتها وتفاصيلها ـ توقفنا على منهج عمر في الرواية وحرصه على التثبت فيها ، علمًا بأن أبا موسى الأشعري من المهاجرين السابقين والصحابة الكبار . وليس طلب عمر ـ رضي الله عنه ـ للبينة تهمة لأبي موسى الأشعري ، ولا يعني أن عمر ـ رضي الله عنه ـ لا يقبل خبر الواحد العدل ، وإنما قصد أن يوجه الصحابة إلى طلب التحري والتثبت ، وألاَّ يحدث أحدهم عن رسول الله ﷺ إلاَّ بما تيقن من روايته وحفظه . وقد جاءت زيادة عن مالك في الموطأ أنَّ عمر قال لأبي موسى : (أما إني لم أتهمك ، ولكنّي أَردت ألاّ يتجرأ الناس على الحديث عن رسول الله ﷺ)[٤٦] .

---

(٤١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ١٦٩٦/٣ والإمام البخاري في صحيحه ٢٦/١١ (بهامش فتح الباري) .
(٤٢) الإمام مسلم ، الصحيح ١٦٩٤/٣ .
(٤٣) الإمام مسلم ، الصحيح ١٦٩٥/٣ .
(٤٤) الإمام مسلم ، الصحيح ١٦٩٦/٣ .
(٤٥) أخرجه مسلم ، الصحيح ١٦٩٧/١٦٩٦/٣ .
(٤٦) أخرجه الإمام مالك في الموطأ ٩٦٤/٢ .

وكذلك كان موقف عمر ـ رضي الله عنه ـ من المغيرة بن شعبة ، فقد أخرج الإمام البخاري من رواية المغيرة بن شعبة (قال : سأل عمر بن الخطاب عن إملاص المرأة ـ وهي التي يُضرب بطنها فتلقي جنينها ـ فقال : أيكم سمع من النبي ﷺ فيه شيئًا ؟ فقلت : أنا . فقال : ما هو ؟ قلت : سمعت النبي ﷺ يقول : فيه غُرَةٌ عبدٌ أو أمة . فقال : لا تبرح حتى تجيئني بالمخرج فيما قلت)(٤٧) .

وهكذا فقد طبع الحديث في زمن عمر ـ رضي الله عنه ـ بهذا المنهج من التحري والضبط والتوقي من حديث لا شاهد عليه ولا بينة ، وليس ذلك تهمةً للصحابة الكرام ، ولا تقليلاً من شأنهم ، بل هو حب سنة النبي ﷺ لتبقى صحيحة ، مهيبة الجانب ، بعيدة عن الأوهام . لقد ظهرت هذه البداية المنهجية مع بدء الرواية ، ثم أخذت أشكالاً أخرى غير طلب الشاهد على الرواية كتتبع الروايات والطرق ، والبحث عن المتابعات . وكانت هذه الطريقة المنهجية في وقتها المناسب ؛ إذ تعلم الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ من خلالها درسًا جعلهم لا ينطقون ولا يروون إلاَّ ما كانوا على يقين منه ، فتجنبوا الغرائب والظنون البعيدة . ولو تأخرت هذه المنهجية ـ لا قدر الله ـ لاتسعت الروايات دونما ضابط ، ولما أمكن ضبطها بعد ذلك بالمناهج ، فكان فضل الله على هذه الأمة عظيمًا .

(٤٧) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ٢٩٨/١٣ (بهامش فتح الباري) .

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الصَّحَابة لم يَعرفوا الكذب

لقد زكى الله عصر النبي ﷺ وأصحابه بقوله : ﴿ كُنتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَت لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران : ١١٠) وبقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُم أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة : ١٤٣) وزكى النبي ﷺ أصحابه بقوله : « خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »[٤٨] . وكان من جوانب التزكية الصدق الذي تميز به الصحابة الكرام ، فلم يعرفوا الكذب القائم على الافتراء والتزوير ، وما يرد من ألفاظ التكذيب على ألسنة بعضهم فإنه تخطئة بعضهم لبعض ، وبيان ما وقع فيه بعضهم من وَهْمِ الكلام . والكذب بهذا المعنى لا يُعصم منه أحد ، لا من الصحابة ، ولا ممن دونهم . جاء في لسان العرب : (وفي حديث عروة أن ابن عباس يقول : إن النبي ﷺ لبث بمكة بضع عشرة سنة ، فقال : كذب ، أي أخطأ ، سماه كذبًا ؛ لأنه يُشْبِهه ؛ لأنه ضد الصواب . كما أن الكذب ضد الصدق ، وإن افترقا من حيث النية والقصد)[٤٩] . وقد جاءت هذه الكلمة في أحاديث كثيرة بمعنى الخطأ ، من ذلك :

قول النبي ﷺ : « كذب من قال ذلك »[٥٠] في الردّ على من ظن أن عامر بن الأكوع قتل نفسه في غزوة خيبر حيث أصابه سيفه ، وهو يبارز

---

(٤٨) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ٣/٧ بهامش فتح الباري . ومسلم ١٩٦٤/٤ .

(٤٩) لسان العرب مادة « كذب » .

(٥٠) أخرجه الإمام مسلم . (١٤٤١/٣) .

مرحبًا ملك اليهود . وقوله ﷺ : « كذب أبو السنابل ؛ ليس كما قال ، قد حللت فانكحي » . وذلك في الرد على أبي السنابل الذي قال لسُبَيْعَةَ بنت الحارث ـ وقد وضعت حملها بعد وفاة زوجها بأيام ـ : إنك لا تحلي حتى تمكثي أربعة أشهر وعشرًا . فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « كذب أبو السنابل ، ليس كما قال »[٥١] .

وعلى نحو هذا الاستعمال لكلمة « كذب » جاء استعمال الصحابة لها ، كقول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن نوف البكالي : « كذب نوف » ـ عندما قال : صاحب الخضر ليس موسى بني إسرائيل ، وإنما موسى آخر ـ ونوف من الصالحين العبّاد ، ومقصود ابن عباس : أخطأ نوف[٥٢] .

ولم يعرف عن أحد من الصحابة أنه كذب . وما قيل عن ظهور الكذب في عهد الصحابة ، وأن عبد الرحمن بن عديس وضع حديثًا على رسول الله ﷺ يقول : ألا إن عثمان أضل من عبيدة على بعلها ، فقد ذكر السيوطي هذا في الموضوعات . وسنده إلى ابن عُديس لا يصح ، فقد جاء في السند : (حُدثت أنَّ كامل بن طلحة قال : قال حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا يزيد بن عمرو المعافري ، أنه سمع أبا ثور الفهمي قال : قدمت على عثمان فصعد ابن عُديس المنبر ، وقال : إلا أن عبدالله بن مسعود حدثني أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ألا إن عثمان أضل من عبيدة على

(٥١) سنن سعيد بن منصور ، القسم الأول من المجلد الثالث ـ ص : ٣٥٠ بسند صحيح .
(٥٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٤٠٩/٨ بهامش فتح الباري .

بعلها ، فأخبرت عثمان فقال : كذب والله ابن عُديس ما سمعها من ابن مسعود ، ولا سمعها ابن مسعود من رسول الله ﷺ قط)[٥٣] . ويلاحظ الانقطاع في السند . فالراوي عن كامل بن طلحة يقول : (حُدثت) ومثل هذا الانقطاع يجعل السند واهيًا . ثم إن أبا ثور الفهمي من الرواة المعروفين عن عبد الرحمن بن عديس ، ولو كان روى هذه الحادثة بما فيها من تكذيب لما روى عنه شيئًا بعد ذلك . وقد ترجم ابن أبي حاتم لعبد الرحمن بن عُديس ، وقال : روى عنه أبو ثور الفهمي ، وقال أيضًا : له صحبة ، ولم يذكر فيه جرحًا[٥٤] . كما أن كتب المجروحين لم تذكر عبد الرحمن بن عُديس . وذكره ابن عبد البر في « الاستيعاب » ، وابن حجر في « الإصابة » . وجاء في ترجمته : كان ممن بايع تحت الشجرة ، ومثل هذا الصحابي لا يجرح بمثل هذا الخبر الملفق . وعندها يبقى الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في رتبة العدول .

نقد المتن في زمن الصحابة

رأينا فيما سبق بواكير نقد السند في زمن الصحابة ، حيث كان الصحابي يتثبت من إسناد الحديث إلى النبي ﷺ . وقد ظهر إلى جانب هذا نقد أوسع وهو نقد المتن ، ومناقشة الصحابي فيما روى من

---

(٥٣) اللآلىء المصنوعة ١/٣١٨ .

(٥٤) الإصابة لابن حجر ٢/٤٠٣ ، والاستيعاب (بهامش الإصابة) ٢/٤٠٢ .

الموضوعات . وكان الدافع إلى هذا النقد المعارضة النقلية ، أو المعارضة العقلية ، أو المعارضة لمبادىء الإسلام ومنطقه ومناهجه . وقد تجتمع أنواع المعارضة في مثال واحد .

مثـــــال :

ومن الأمثلة التي تجمعت فيها أنواع المعارضة ما يلي :

أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن ابن أبي مُليكة ، قال : توفيت ابنة لعثمان ـ رضي الله عنه ـ بمكة ، وجئنا لنشهدها ، وحضرها ابن عمر وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ وإنِّي لجالس بينهما ، أوْ قال : جلست إلى أحدهما ، ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبي ، فقال عبدالله بن عمر لعمرو بن عثمان : ألا تنهى عن البكاء ؛ فإن رسول الله ﷺ قال : إنَّ الميت ليعذب ببكاء أهله عليه ؟ فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : قد كان عمر ـ رضي الله عنه ـ يقول بعض ذلك ، ثم حدَّث قال : صَدَرْتُ مع عمر ـ رضي الله عنه ـ من مكة ، حتى إذا كنا بالبيداء إذا هو بركب تحت ظل سَمُرة ، فقال : اذهب فانظر من هؤلاء الركب ، قال : فنظرت فإذا صهيب ، فأخبرته فقال : ادعه لي ، فرجعت إلى صهيب ، فقلت : ارتحل فالحق بأمير المؤمنين ، فلما أصيب عمر دخل صهيب يبكي ، يقول : وا أخاه ، وا صاحباه ، فقال عمر : يا صهيب أتبكي عليَّ ، وقد قال رسول الله ﷺ : « إن الميت ليعذب ببعض بكاء أهله عليه » ؟

قال ابن عباس : فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة ـ رضي الله عنها ـ فقالت : رحم الله عمر ، والله ما حدث رسول الله ﷺ إن الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه ، ولكن رسول الله ﷺ قال : « إن الله ليزيد الكافر